

ندوات تلفزيونية - قناة دنيا - ومضات فقهية : العبادة ١
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

السادة مشاهدي تلفزيون الدنيا ، أهلاً ومرحباً بكم في حلقة جديدة من : "مضات فقهية " ، ونحييكم تحية خاصة في أول أيام الشهر الكريم ، وكل عام وأنتم بخير ، سيكون لنا لقاء يومي معكم في برنامج قبل الإفطار برنامج " ومضات فقهية " لنتحدث فيه عن كل ما يخص المسلم في هذا الشهر الكريم من قضايا دينه ودينه ، حديثنا اليوم مع فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي ، أهلاً بك .

الدكتور راتب :

بكم أستاذ نزار ، جزاك الله خيراً .

الأستاذ نزار :

دكتور إذا ابتدأنا حديثنا في هذا الشهر الكريم عن العبادة ، هل كل ما يتقرب به الإنسان إلى الله مما نزل في القرآن ، وما فرضته السنة ، وتحديثت به السنة ، وما جاء في الأثر ، هل هذا كله عبادة ؟.

لا تصح حركة الإنسان إلا إذا عرف سر وجوده :

الدكتور راتب :

أستاذ نزار جزاك الله خيراً على هذا السؤال ، ولكن لا بدّ من مقدمة ، هذه المقدمة تؤكد أن الإنسان كائن متحرك ، ما الذي يحركه ؟ حاجات ثلاث أودعها الله فيه ، الحاجة إلى الطعام والشراب حفاظاً على بقائه كفرد ، والحاجة إلى الجنس حفاظاً على بقاء النوع ، والحاجة إلى تأكيد الذات حفاظاً على بقاء الذكر ، فالإنسان في الأصل كائن متحرك ، تحركه حاجات ثلاث ، هذه الحاجات إما أن تكون الحركة من قبلها صحيحة أو غير صحيحة ، السؤال الأول متى تصح حركة الإنسان ؟ هو كائن متحرك شئنا أم أبينا ، رضينا أم لم نرض ، لكن هذه الحركة متى تصح ؟ تصح إذا عرف الإنسان سر وجوده .

لو سافر إنسان إلى بلد وسأل إلى أين أذهب ؟ نسأله نحن : لماذا أتيت إلى هنا ؟ إن جئت طالب علم اذهب إلى المعاهد والجامعات ، وإن جئت تاجراً اذهب إلى المعامل والمؤسسات ، وإن جئت سائحاً اذهب إلى المقاصف والمتنزهات .

فالحركة في بلد ما لا تصح إلا إذا عرف الإنسان سر وجوده .

لكن لو كبرنا هذا المثل ، نحن في الأرض ، لماذا نحن في الأرض ؟ لماذا خُلِقنا في الأرض ؟ من خَلقنا ؟ لماذا خُلِقنا ؟ أين كنا ؟ ماذا بعد الموت ؟ هذه أسئلة كبرى الإنسان إن لم يعرفها فهو مقصر تقصيراً استراتيجياً خطيراً ، لأن ما كل ذكي بعقل ، قد يتفوق الإنسان باختصاص معين ، أما إذا غفل عن سرّ وجوده ، وعن غاية وجوده ، وعن القضايا الكبرى في حياته ، فهو ليس بعقل .

العلاقة التي أرادها الله بينه وبين عباده علاقة حب لا علاقة إكراه :

فأول سؤال ينبغي أن يطرحه الإنسان على نفسه لماذا أنا في الدنيا ؟ الآية تقول :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(سورة الذاريات)

من تعريف العبادة : أنها طاعة طوعية ، طاعة للخالق ، طاعة للخبير ، طاعة للعليم ، طاعة للغني ، طاعة للتقدير ، طاعة لمن خَلقنا .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾

(سورة البقرة الآية : ٢١)

هي طاعة لكنها طوعية ، ليست قسرية ، لأن الله ما أراد أن تكون العلاقة به علاقة إكراه ، قال :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

(سورة البقرة الآية : ٢٥٦)

أراد أن تكون العلاقة به علاقة حب ، قال :

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

(سورة المائدة الآية : ٥٦)

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾

(سورة البقرة الآية : ١٥٦)

فالعلاقة التي أرادها الله بينه وبين عباده هي علاقة حب ، إذاً هي طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية .

الأستاذ نزار :

أين المحبة والخشية إذاً ؟ .

على المؤمن أن يجتمع في قلبه تعظيم لله ومحبة له وخوف منه :

الدكتور راتب :

الخشية يغلب عليها الخوف ، والحقيقة سؤال رائع جداً ، المؤمن ينبغي أن يجمع بين الخوف والحب .

((يا رب أيّ عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحبّ عبادي إليّ تقي القلب ، نقي اليدين

، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحبيني إلى خلقي ، قال : يا رب إنك

تعلم أنني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحبك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلاني ، ونعمائي ،
وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

ذكرهم بآلاني كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .
تفضلت أن الخشية غير الحب ، الخشية خوف ، ولابد من أن يجتمع في قلب المؤمن وهو يؤدي
هذه العبادة العظيمة أن يجتمع تعظيم الله ، ومحبة له ، وخوف منه .
إذاً هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، الحقيقة أصل الدين معرفة
الله ، هذا الذي تصوم له من ؟ ماذا عنده لو أطعته ؟ ماذا ينتظر الإنسان لو عصاه ؟ هذا الذي
تصلي له من هو ؟ هو خالق السماوات والأرض ، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ،
هو الذي :

﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(سورة يس)

بيده مقاليد السماوات والأرض :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

(سورة الرحمن)

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

مع عباده ، إذاً العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تقضي إلى
سعادة أبدية ، لكن ما عبد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه .
الأستاذ نزار :

دكتور ، بما أن العبادة مرتبطة ، أو العبادة معللة بمصالح الخلق كما أشرت إلى هذه النقطة أي أن
الفرد عندما يتوجه إلى الله تعالى ، يناجي الله تعالى ، يتعامل مع الله تعالى، ولكن هو بالأساس فرد
ضمن مجتمع ، هذه العلاقة عندما تنعكس العبادة عليها بشكل أساسي توجب على هذا الفرد علاقة
تعاملية ، عبادة تعاملية مع الناس ، أي أن الموضوع لا يقتصر فقط على الناحية الشعائرية سواء
كانت الصلاة ، أم الصيام ، أم الزكاة ، كلها بالنهاية يجب أن تؤدي إلى تهذيب النفس في تعامله
في هذه العبادة التعاملية مع محيطه ، مع مجتمعه ، لكي تجعل هذا المسلم فرداً صالحاً ضمن
مجتمعه كيف ؟.

العبادة الشعائرية لا تصح ولا تقبل إلا إذا صحت العبادة التعاملية :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن هذه العبادة الشعائرية لا تصح ولا تقبل إلا إذا صحت العبادة التعاملية، أي هناك
عبادات شعائرية كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، هناك عبادات تعاملية ، يقول النبي الكريم:

((أَمَرَنِي رَبِّي بِتَسْعٍ : خَشْيَةِ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَكَلِمَةِ الْعَدْلِ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَالْقَصْدِ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَأَنْ أَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي ، وَأَعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي ، وَأَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

سيدنا جعفر التقي النجاشي ، قال :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنَسِيءُ الْجَوَارِ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مَنَا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِتَوْحِيدِهِ وَلِنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرْنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ ، وَحَسَنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَاءِ))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

أخطر شيء أتمنى أن يكون واضحاً عند الأخوة المشاهدين العبادات الشعائرية ومنها الصيام ، ومنها الصلاة ، ومنها الحج ، ومنها الزكاة لا تصح ، ولا تقبل أصلاً إن لم تصح العبادات التعاملية ، طالبني بالدليل ، النبي الكريم سأل أصحابه :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دَرَاهِمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ . قَالَ : إِنْ الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضْرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنَيْتَ حَسَنَاتَهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ ، أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُطْرَحُ فِي النَّارِ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الصلاة ، الصيام :

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

((رَبِّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ))

[أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة]

الزكاة :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

(سورة التوبة)

الحج :

((مَنْ حَجَّ بِمَالٍ حَرَامٍ فَقَالَ : لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لَا لَبِيكَ وَلَا سَعْدِيكَ وَحَجَّكَ

مردود عليك))

[رواه الشيرازي وأبو مطيع عن عمر]

الشهادة :

((من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[رواه الطبراني عن زيد بن أرقم]

رقي المعاملات شرط لصحة العبادات :

جزاك الله خيراً أستاذ نزار نبهت إلى نقطة مهمة جداً ، هذه العبادات من أجل أن ترقى المعاملات ، بل إن رقي المعاملات شرط لصحة العبادات ، أما أن أصوم وأنا على ما أنا عليه من غيبة ، ونميمة ، وبهتان ، وقول زور ، وغش للناس ، كأنه لم يصم أصلاً ، أساساً الصيام من أجل أن يرقى الإنسان إلى مستوى يليق به ، ما دام الإنسان منضبطاً بمبادئ وقيم العبادة الشعائرية تصح وتقبل ، فلذلك :

((رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع))

[أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة]

الأستاذ نزار :

ولكن هل من أجل ذلك فرضت العبادات الشعائرية أم أنه بالأساس لتشكيل مجتمع صالح إن اتبع هذه التعليمات ، وهذه الإرشادات في كل ركن من أركان الإسلام ، هناك معان كثيرة تتبها لها المسلم انعكست عليه ، وعلى مجتمعه بالرقي ، الآن ربما المجتمع محروم في كثير من هذه الجوانب ، حتى الأناس الذين يعتبرون الشخص متديناً ، نرى أن هذا الشخص لا يتبع الفكر الموجود فيما تقوله.

عظمة هذا الدين أنه دين فرد ودين جماعة في وقت واحد :

الدكتور راتب :

عظمة هذا الدين أنه دين فرد ، ودين جماعة في وقت واحد ، الفرد له علاقة مع الله عز وجل ، إذا صحت هذه العلاقة انعكست صدقاً ، وأمانة ، وورعاً ، وإنصافاً ، ورحمة، وحباً ، هذه الصفات إذا توافرت في الإنسان صحت عبادته ، تداخل عجيب بين هذا الدين كدين فرد ، وبين هذا الدين كدين جماعة ، فهو في الوقت نفسه دين فرد ، لو أن الناس جميعاً أهملوا هذا الدين ، بإمكانك أن تقطف كل ثماره وحدك ، حينما تعقد صلة مع الله ، وتتقي الله، وتفعل الخير مع الناس جميعاً ، وحينما يطبق جميع الناس هذا الدين ترى مجتمعاً يفوق حدّ الخيال ، مجتمع المحبة ، مجتمع الإنصاف ، مجتمع العدل .

الحقيقة من الصعب أن نفصل بين الفرد والمجتمع في هذا الدين ، نظام خالق السماوات والأرض فيه تداخل عجيب ، فيه تكامل ، فأنا من جهة يعد الدين لي نشاطاً فردياً في صلاتي ، وأذكاري ، وصيامي ، وقربي من ربي ، ويعد منهجاً اجتماعياً حينما لا أكذب ، ولا أشتم ، ولا أغش ، ولا

أحتال ، وأكون صادقاً أميناً ، فهناك تداخل عجيب بين هذا الدين كفرد ، وبين هذا الدين كمجتمع .
الأستاذ نزار :

ولكن على مستوى العبادة ، أنت ميزت منذ قليل مصطلح الطقوس ، وهي مجموعة حركات
وسكنات في كل ركن من أركان الإسلام لو تحدثنا عن هذه النقطة ، ما الفرق بين طقوس تتبع ، أو
ما بين مناسك لنقل شعائر تتبع في كل واحد منا ؟

العبادات الشعائرية في الإسلام معللة بمصالح الخلق :

الدكتور راتب :

العبادات لها معاني ، مثلاً :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

الزكاة :

﴿ تَطَهَّرْهُمْ ﴾

(سورة التوبة الآية : ١٠٣)

تطهر الغني من الشح ، تطهر الفقير من الحقد .

﴿ وَتَرَكِيهِمْ ﴾

(سورة التوبة الآية : ١٠٣)

تتمي مال الغني ، تتمي نفسية الفقير .

الصيام :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(سورة البقرة)

الحج :

﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾

(سورة المائدة الآية : ٩٧)

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

(سورة العنكبوت الآية : ٤٥)

أي العبادات الشعائرية في الإسلام معللة بمصالح الخلق ، لا يعقل خالق السماوات والأرض أن
يأمرنا بأمر يؤدي أداء شكلياً ، هذا يتناقض مع عظمة الله ، إلهنا ، ربنا خالق السماوات والأرض
يأمرنا بالصيام ، لنمتنع عن الطعام والشراب فقط ؟ شيء ليس له معنى ، يبدو أن هذا الامتناع عن
الطعام والشراب سبب للقرب من الله ، والقرب من الله ينعكس صدقاً ، وأمانة ، وإخلاصاً ،
وتواضعاً ، ورحمة ، ومحبة ، وإنصافاً ، أي المجتمع المسلم مجتمع متألق بسبب عباداته .

الأستاذ نزار :

أيضاً من ناحية أخرى كثر الانتقاد كثيراً لأمر تمارس في رمضان لابتعاده عن هذه الصيغ إلى صيغ أخرى ، دائماً اعتاد المشايخ ، واعتاد أي شخص مراقب لحركة المجتمع على انتقاد هذا الأمر ، هل ابتعدوا كثيراً؟.

شهر رمضان شهر عبادة وليس شهراً اجتماعياً :

الدكتور راتب :

كان الصيام عبادة سنوية ، شحنة سنوية ينبغي أن تكفيك عاماً بأكمله فأصبح مع الأسف الشديد شهراً اجتماعياً ، ولائم ، وحفلات ، ولقاءات ، والبعد عن الأشياء التي تقرب من الله عز وجل ، أنا أتمنى من خلال هذه الحلقات أن ينتبه الأخوة المشاهدون إلى أن هذا الشهر شهر عبادة ، وليس شهراً اجتماعياً كما يمارسه بعض الناس .

خاتمة و توديع :

الأستاذ نزار :

نشكرك جزيل الشكر دكتور محمد راتب النابلسي ، شكراً جزيلاً .

الدكتور راتب :

شكراً جزيلاً ، بارك الله بك .

الأستاذ نزار :

شكراً للسادة المشاهدين لمتابعتكم لهذه الحلقة من : "مضات فقهية" نلناكم في حلقات قادمة إلى اللقاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله رب العالمين